الأستاذة: لمياء عيطو

مقياس: النص الأدبي الحديث

المحاضرة موجهة لطلبة السنة الثانية دراسات أدبية (الفوج 03/02/01)

المحاضرة الثالثة: الإحياء الشعري في المغرب (03)

إذا كان البارودي رائد شعر الإحياء في مصر فإن الأمير عبد القادر رائده في الجزائر والمغرب العربي بصفة عامة؛ وذلك لأننا إن عدنا إلى الاعتبار الزمني لوجدنا بأن الأمير سابق حتى على البارودي، ولكن لبعض الاعتبارات المتعلقة بالكم والنوع نسبت الأسبقية للبارودي في المشرق. غير أن الجدل القائم حول فكرة الأسبقية لا ينفي فكرة أن كلا منهما يمثل فجر نهضة شعرية موقفا وتعبيرا، وفي ذلك يقول عمر بن قينة بأنهما: « عبّرا عن التحول الحاصل في هذا الصراع بين حضارتين، وعن مناخ جديد: سياسيا واجتماعيا، وثقافيا، فضلا عن الجانب الشخصي الجوهري (...) لكنهما معا وضعا لبنة في صرح أدب عربي حديث يستلهم الماضي، ويعانق الحاضر، متطلعا إلى المستقبل، يعكس هموم والإنسان في أمة عربية شرعت تتطلع للتغيير في كل مناحي الحياة بعد الرجّة العنيفة الناتجة عن الاحتلال الأوروبي للعالم الإسلامي، ومنه الوطن العربي».

ومن جهة أخرى نجد الصالح خرفي يؤكد بأن الريادة الشعرية في المغرب العربي تعود إلى الأمير عبد القادر فيقول: « إنّ المدلول الزمني للفظة (الحديث) بالنسبة للشعر الجزائري، يأتي في طليعة الأمور التي تحتاج لوقفة وتأمل فإنّ المدلول الزمني لهذه اللفظة بالنسبة للأدب العربي، وفي المشرق بالذّات قد يوغل في القرن الماضي (التاسع عشر) إلى عهد محمد علي، وهذا العهد يصادف عندنا في الجزائر ظهور شخصية بطولية أدبية هي شخصية (الأمير عبد القادر) فلم لا تكون هذه الشخصية عتبة النهضة الشعرية عندنا ».

عند الحديث عم ملامح الإحياء في شعر الأمير نلاحظ بأنه حاول استلهام روح القصيدة العربية القديمة معنى ومبنى، فجارى القدماء في أغراضهم وأساليبهم وصورهم وحافظ على هيكلية القصيدة القديمة. ومن الأغراض الشعرية التي نظم فيها نذكر:

الفخر:

إن غرض الفخر هو من أميز الأغراض التي نظم فيها الأمير عبد القادر، فكانت فخرياته تشابه شخصيته وتطالعنا بفروسيته، حتى أن قارئها يخال نفسه مع عنترة بن شداد في حديثه عن قوة الشخصية والفروسية العربية الأصيلة. ونستدل على ذلك بمقطعين شعريين أحدهما للأمير والآخر لعنترة.

يقول الأمير عبد القادر في قصيدة بي يحتمي جيشي:

تسائلني أم البنين، وإنّها لَأعلمُ من تحت السماء بأحوالي

ألم تعلمي يا ربَّة الخدر أنني أجلي هموم القوم في يوم تجوالي

وأغشى مضيق الموت لا متهيبا وأحمي نساء الحيِّ في يوم تهوال

إن المتأمل في هذه الأبيات يجد الأمير عبد القادر وهو يخاطب زوجته "أم البنين" يستحضر فروسية الشاعر الجاهلي عنترة بن شداد وهو يتذكر ابنة عمه عبلة في الحروب والمعارك التي يقول فيها:

هَلَّا سألت الخيل يا ابنة مالك إن كنت جاهلة بما لم تعلمي

يخبرك من شهد الوقائع أنني أغشى الوغى وأعِفُّ عند المغنم

والفخر عند الأمير عبد القادر انبنى على جزئيتين أساسيتين هما: الفخر الفطري الطبيعي الذي يعود إلى نسبه الشريف الذي يرجع إلى آل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم، وفخر إرادي مكتسب يعود إلى مواقفه البطولية وأعماله الجليلة.

يرى الأمير أن انتسابه إلى آل البيت يعد فخرا كبيرا، وشرفا ساميا، لا يصله إلا من حباه الله بهذا الانتماء، الذي يغنيه عن كل رتبة دنيوية أو ثروات تجمع من أموال الدنيا الزائلة، وبالتالي لا أحد يستطيع إذلاله أو النيل من شرفه فيقول:

أبونا رسول الله خير الورى طرا فمن في الورى يبغي يطاولنا قدرا

ولانا غدا دينا وفرض محتما على كلّ ذي لبّ به يأمن من الغدرا

وحسبي بهذا الفخر من كلّ منصب وعن رتبة تسمو وبيضاء أو صفرا

لعليائنا يعلو الفخار وإن يكن به قد سما قوم ونالوا به نصرا

ومن رام إذلالنا قلت: حسبنا إله الورى والجد أنعم به فخرا

ومن مقاطع فخره المكتسب نأخذ هذا المقطع الذي يتحدث فيه عن فروسيته، لنجد فيه من جمال الصورة وروعة التعبير وحسن البلاغة وفصاحة اللغة ما كان عليه الشعراء القدامى أمثال عنترة بن شداد، عمر بن كلثوم، البحتري، ابن الرومي، أبو فراس الحمداني، المتنبي ... وغيرهم، والقارئ لقصائد الأمير يجد أنّه قد حافظ على نهج القصيدة العمودية، وحاكى فحول شعراء العصر الجاهلي والعبّاسي، فجاء معجمه الشعري يتقاطع بشكل واضح مع الحقول الدلالية للشعر القديم، ويتناص بشكل ظاهر.

إذا ما لقيت الخيل إنّي لأوّل وإن جال أصحابي فإنّي لها تال

أدافع عنهم ما يخافون من ردى فيشكر كلّ الخلق من حُسن أفعالي

وأورد ريات الطّعان صحيحة وأصدرها بالرّمي تمثال غربالي

ومن عاد السادات بالجيش تحتمي وبي يحتمي جيشي وتُحرس أبطالي

إذا اشتكت خيلي الجراح تحمحما أقول لها: صبرا كصبري وإجمالي

الغزل:

اقتفى الأمير سبيل الذين سبقوه من الشعراء فكتب في غرض الغزل، غير أن هذا الأخير لم يظهر إلا في إطاره المتعفف الذي يليق بذاته المتعالية وبابنة عمه التي أصبحت أم البنين، فكانت كل قصائده الغزلية موجهة إليها كحبيبة واحدة يبثها آلامه وأشواقه.

يقول الأمير:

أقول لمحبوب تخلّف من بعدي عليلا بأوجاع الفراق والبعد

أما أنت حقًّا لو رأيت صبابتي لهان عليك الأمر من شدّة الوجد

غريق أسير السقم مكلوم الحشا حريق بنار الهجر والوجد والصدّ

ألا هل يجود الدّهر بعد فراقنا فيجمعنا والدّهر يجري إلى الضدّ

وأشكوك ما قد نِلْت من ألم وما تحمله ضعفي وعالجه جهدي

لكي تعلمي –أم البنين– بأنّه فراقك نار واقترابك من خلد

المدح:

انصب المدح عند الأمير على ثلاث محاور أساسية تتراوح بين المدح في إطاره الصوفي، والمدح في إطار سياسي، والمدح في إطار أدبي. وقد اتسمت المحاور الثلاث بصفة عامة بالابتعاد عن التكلف؛ حيث ذهب فيه إلى ضرورة اعتماد الصدق الفني، وفق مذهبه الأخلاقي.

يقول الأمير عبد القادر في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم سند المسلمين وشفيعهم يوم البعث العظيم:

يا سيدي يا رسول الله يا سندي ويا رجائي ويا حصني ويا مددي

ويا ذخيرة فقري يا عياذي يا يا غوثي يا عدتي للخطب والنكد

يا كهف ذلي ويا حامي الذمار ويا شفيعنا في غد أرجوك يا سندي

التصوف:

يعود افتتان الأمير عبد القادر بالشعر الصوفي إلى نشأته الدينية في أسرة محافظة، ربت فيه حب العبادة والتقوى، والزهد في الدنيا، فاتخذ من كبار الشعراء الصوفيين كابن عربي وعفيف الدين التلمساني وابن الفارض، أساتذة له يعظمهم ويمدحهم ويذهب في نظمه الشعر إلى مشاكلتهم من خلال توظيف رمز المرأة ورمز الخمرة ورمز الديار. فيقول:

ليتهم إذا ملكوني أسجحوا ليتهم إذا ما عفوا أن يصفحوا

رحلوا العيس ولم أشعر بهم ليت شعري أيّ وادي صبّحوا

أخذوا قلبي وماذا ضرّهم أن يكونوا بجميعي جنحوا

أي عيش لي من بعدهم طار قلبي وعظامي ملحوا

ويح أهل العشق هذا حظهم هلكى مهما كتموا أو صرحوا

بعض المراجع المعتمدة في المحاضرة:

- صالح خرفي: في ذكرى الأمير.
- الطيب عطاوي: ريادة الإحياء بين الأمير عبد القادر والبارودي.
- عمر بن قينة: الأدب العربي الحديث.